تقلب الحكومة الإسرائيلية

د. عبد الستار قاسم

2005/1/7

هناك تحليلات عربية نشطة هذه الأيام حول أيام شارون المعدودة في رئاسة الوزراء وأنه لن تمضي عدة أشهر وإلا حكومته آيلة للسقوط. ربما تنبع هذه التحليلات وتنشط بسبب ضيق العرب بنتائج الانتخابات الصهيونية الأخيرة وبما يمكن أن يحدثه شارون من تعقيدات على الوضع السياسي الخاص بما يسمى بعملية السلام مع العرب. ربما، بل من التوقع، ألا يكمل شارون مدته المحددة إلا إذا حصل أمر غير متوقع على الساحة الداخلية في الكيان الصهيوني، لكن ذلك لن يحصل بسبب موقفه السياسي وإنما بسبب ظروف الوضع السياسي العام في الكيان.

تمر الحكومة الإسرائيلية بنوع من عدم الاستقرار يؤدي إلى تبكير موعد الانتخابات مما يؤدي إلى تقلب في البرامج المختلفة في إسرائيل. لم تصمد حكومة نتنياهو، ولم يصمد باراك كرئيس للوزراء. وقبل ذلك كان اغتيال رابين. إنه تقلب سريع وأظنه سيستمر لفترة لا بأس بها من الزمن. فهذا تقلب لم يأت من فراغ ولا يحصل في فراغ أو بدون أسباب. إسرائيل اليوم ليست إسرائيل الأمس، إنها تشهد على مدى سنين خلت متغيرات متنوعة وتتأثر بعدد من العوامل الخارجية الإقليمية منها والعالمية، وستبقى تعاني من المتغيرات والمؤثرات لسنين قادمة، وربما تفقد معها البوصلة التي تهتدي بها نحو الاستقرار.

تعاقب المراحل السياسية

يؤثر تعاقب المراحل السياسية على الحياة العامة للناس في أي دولة كانت، وكذلك على أوضاعهم النفسية واهتماماتهم ورموزهم وطبيعة خطاباتهم ونقاشاتهم المختلفة. مرحلة الثورة مثلا تؤثر على أنماط معيشة الناس وأساليب تناولهم لمشاكلهم ووسائل الإنتاج وسلوكيات الاستهلاك، الخ. وهي تفرز رموزا معروفة بأعمالها المتميزة في مواجهة العدو، ولها تعريفها الخاص للبطولة وما يواكبها من أعمال. وهي مرحلة تختلف بالتأكيد عن مرحلة استقرار حيث لا أعداء ولا مثالب خارجية ولا شظف في العيش. هذه مرحلة لها خصائصها وميزاتها وهمومها.

بالنسبة لإسرائيل، انتهت مرحلة التأسيس وانتقلت إلى مرحلة "تأديب العدو" ثم مرحلة اللاسلم واللاحرب، ثم مرحلة السلم واللاحرب القائمة حاليا. تطلبت مرحلة التأسيس الحشد والتضحية وأفرزت بالتالي قادة كبار كانوا قادرين على جمع الكلمة والإقناع والتوحيد. بطبيعتها تفرز هذه المرحلة، بغض النظر عن الشعب أو المجتمع الذي يمر بها، رموزا يحتذى بها بسبب إقدامها وصبرها وتحملها للأذى والمعاناة وتقديمها لمختلف أنواع التضحيات. وهي تشبه إلى حد كبير مرحلة التحديات العظمى مثل تحدي عدو خارجي يهدد الوجود أو تفسخ اجتماعي يؤدي إلى اقتتال داخلي أو تدهور اقتصادي ينتهي إلى فقر مدقع وانحلال عام. هذه مرحلة تفرز قادة عظماء يمكن أن يوحدوا الناس ويقودوهم نحو الخلاص. وهم بتضحياتهم وقدراتهم القيادية يشكلون بؤرة استقطاب جماهيرية يتم التسليم لها حتى لو غابت المؤسسات

الدستورية. مثل هؤلاء يعتمدون على ثقة الجماهير بهم المستندة على سجل تاريخي حافل بالعطاء وعلى الصفة الإلهامية التي اكتسبوها من خلال العطاء.

مع فتور مرحلتي الحشد والاستنفار وتوجه العرب نحو السلام مع إسرائيل أو البحث عن حل سلمي معها، تراجعت ظاهرة الأبطال أو القادة الملهمين. شأن إسرائيل في ذلك شأن الدول الأخرى. ففي فياتنام مثلا، لن يظهر الآن رجل مهما كان عظيما يوازي في تاريخيته وقدرته على حشد الجماهير وكسب الثقة مثل هوشي منه. وكذلك الأمر في الصين التي ما زالت تُعرف بماوتسي تونغ، وفي يوغسلافيا تيتو، ومصر عبد الناصر والجزائر بن بيلا.ما أن تبدأ مرحلة جديدة حتى تتكيف مقومات القيادة مع متطلباتها والتي هي بالتأكيد مختلفة عن متطلبات المرحلة السابقة.

أتاحت مرحلة فتور التحديات أمام الإسرائيليين فرصة التحول إلى نمط استهلاكي وما يتبعه من تكيفات اجتماعية واقتصادية، وإلى نمط استرخاء نفسي ومادي مختلف عن مرحلة التوتر العالي والخوف من الخطر الخارجي. وفي هذا بدأت إسرائيل مرحلة تحول تتسم بزعزعة أنماط سلوكية شبه عسكرية إلى أنماط أخرى متناسبة مع تطلعات رأسمالية ومجتمع مرفه. وحيث أن مرحلة الصراع العربي الإسرائيلي لم تنته بعد، وقعت إسرائيل أفرادا وجماعات وقيادات في مأزق تجاذب ما بين المرحلة الفتورية التي تبلورت وبين مرحلة التحدي التي ما زال شبحها قائما.

حالة التجاذب المتعاكس هذه تشبه إلى حد كبير حالة عدم الاستقرار التي تعاني منها عدد من الدول في انتقالها من حالة التخلف نحو حالة من الرقي. إنها حالة تتميز بضعف في الوضوح وضبابية في الأهداف وحيرة في الوسائل. ولهذا من الصعب أن تظهر قيادات تاريخية قادرة على حشد الناس واستنفارهم حسب بوصلة واضحة الاتجاه. عدد من دول العالم الثالث أفرزت قيادات تاريخية في مرحلة التحرر، لكنها تاهت في التخبطات السياسية والأخلاقية في مرحلة الاستقلال وعجزت عن تحقيق الاندفاع الذي يشكل البيئة الخصبة لبروز قيادات والتفاف الجماهير حولها.

السلام مع العرب

من ناحية أخرى، أثارت مسألة السلام مع بعض الحكومات العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية مشكلة عدم وجود رؤية واضحة أو موحدة حول السلام المنشود. كانت مسألة إقامة الدولة واضحة تماما لدى الجميع وواضحة الوسائل والآليات، وكذلك بالنسبة لمواجهة التحديات الخارجية، وبالتالي لم يكن من الصعب تكتل أغلبية حاسمة لصالح حزب معين أو قائد واحد. لكن السلام بالنسبة للإسرائيليين لا يحمل تعريفا واحدا لدى مختلف الأحزاب، وحتى أن أعضاء الحزب الواحد مختلفون في تعريفاتهم. معسكر اليمين منقسم على ذاته، وفي داخله معسكرات متعددة الرؤى والطروحات، وكذلك بالنسبة لمعسكر القوميين العلمانيين"واليساريين". لم تقم إسرائيل على فكرة السلام ولا توجد آراء إسرائيلية متجذرة حول السلام، وهذا على نقيض الرؤى الحربية والفلسفات العسكرية. ولهذا وقع الإسرائيليون في حالة من الفوضى السياسية منذ أن بدأت عملية السلام تأخذ منحى جديا بعد حرب الخليج الثانية. حتى أن المحلل السياسي يتوقع مسبقا أن التكتلات السياسية التي تتبلور لا تدوم طويلا، وهي في الغالب عبارة عن تحالفات ضد الغير وليس قناعة بالحليف. أي أن التحالف اليساري القومي يتطور كنوع من الدفاع ضد اليمين وليس لأن المتحالفين مقتنعين بتوحدهم حول رؤية معينة.

ساهم السلام المتحقق أيضا في عملية التردد السياسي في اتخاذ القرار وفي تعثر رسم سياسة سلمية واضحة. فعلى الرغم من أن اتفاقيات السلام قد تم توقيعها مع كل من مصر والأردن إلا أن السلام بقي إلى حد بعيد بين حكومات. ترفض الشعوب العربية حتى الآن السلام مع إسرائيل وليس من المتوقع أن تقبله مستقبلا خاصة في غياب الغشاوة الإعلامية التي كانت تفرضها الحكومات على شعوبها. إسرائيل لا تسعى إلى عمل سلام مع حكومات وإنما مع شعوب لكي تسارع في عملية التطبيع وقبول إسرائيل كجزء لا يتجزأ من المنطقة. فضلا عن أن إسرائيل ترى في غياب مؤسسة الحكم الحديث عن الوطن العربي وما يعنيه ذلك من عدم استقرار الحكومات العربية تهديدا لاستقرار أي اتفاقية سلام تتم معها. من جهة، لا تستطيع إسرائيل أن ترفض يد السلام التي تمدها بعض الحكومات العربية والسلطة الفلسطينية، ومن جهة ثانية لا تستطيع الاعتماد على هذه اليد. وفي مثل هذا الوضع، لا تستطيع حكومة إسرائيلية أو رئيس وزراء أن يتقدم ببرنامج سلام واضح أو أن يطبقه بدون تردد وتراجعات، أو بدون أن يتعرض لانتقادات حادة وتأييد جماهيري متناقص.

حدود الحرب

لم تستطع إسرائيل أن تفرض نفسها من خلال الحرب على العرب بالرغم من سلسلة الهزائم التي ألحقتها بهم. ظن المفكرون الإسرائيليون أن الشعب العربي سيقبل بإسرائيل إذا اقتنع بأنه لا مفر من ذلك، وأن هذا لن يتأتى إلا بعد أن يقتنع أن العرب أعجز من أن يهزموا إسرائيل. هُزم العرب مرارا ولكنهم لم يقتنعوا بما رغب به الإسرائيلي، ولم تحصل القناعة إلا لدى ثلاث حكومات عربية سقطت إحداها وهي اللبنانية وتعاني الثانية والثالثة من مشاكل على المستويين الشعبيين العربي والمحلي. تأكدت إسرائيل أن إرادة الشعب العربي قد تصاب ولكنها في النهاية صلبة وذات بعد استراتيجي عميق، وتأكدت بأن أي حروب قادمة قد تنتهي بانتصار عسكري، لكنها ستنتهي بخسائر إسرائيلية دون قطف ثمار تحقق أهداف الحرب. وقد بات واضحا أيضا لإسرائيل أن العرب قد تخلصوا من عقدة الفزع والارتجالية وأن حروبها القادمة لن تكون سهلة. لم تعد المغامرات العسكرية وسيلة لتأكيد السخرية من الجندي العربي، ولم يعد المنظّر العسكري قادرا على تحقيق نصر بمجرد تحريك دباباته. الناس في إسرائيل وكذلك حكومتهم أصبحوا على يقين من محدودية قدراتهم العسكرية من خلال تجربتهم مع حزب الله. على الرغم من صغر حجم الحزب عدديا إلا أن إسرائيل لم تجرؤ على محاربته بعقر داره واكتفت بأعمال القصف عن بعد، ولم تستطع ان تبقى في جنوب لبنان واضطرت إلى أن تولي الأدبار. ألحق حزب الله هزيمة نفسية بإسرائيل وجيشها وأدخل بعدا جديدا في حساباتها العسكرية وهو النفير الإسلامي الذي لا تلين له إرادة.

وضمن هذا البعد، لم يعد الوضع الدولي ذلك الذي ساد في السبعينات والثمانينات والذي كان أكثر طواعية في قبول المغامرات العسكرية. فعلى الرغم من أن الغرب هو الذي يبادر إلى الحروب وإطلاق عنانها بين دول العالم الثالث، إلا أنه روج لقيم عبر السنوات السابقة وقع هو في شركها. تحدث كثيرا عن الحرية وحقوق الإنسان وحاول تسويقها في مختلف أنحاء العالم، وأصبح من الصعب عليه أن يبرر أعمالا حربية تحمل في داخلها الرغبة في استغلال الشعوب أو تركيعها أو نكران حقوقها. لا يعني أن الغرب ومعه إسرائيل قد استقام وإنما أصبحت هناك كوابح تدعو إلى إعادة التفكير في الأسلوب العسكري التقليدي. هذا ما لم تعتد عليه إسرائيل، وستحتاج إلى وقت حتى تتأقلم لهذا الوضع الجديد.

الوجود العربي على الساحة الدولية

على الرغم من أن العرب ما زالوا بعيدين عن المكانة التي يجب أن يتبوءوها على الساحة الدولية، إلا أنهم يملكون قدرة ولو أدبية ومحدودة على التأثير. لم يعد المجال مفتوحا لإسرائيل لكي تسرح وتمرح وتحشد الرأي العام العالمي على هواها، ولا أن تحوز على تأييد الدول الغربية دون عراقيل ومحاذير. فالعرب سواء على مستوى الحكومات أو المثقفين أو الشعوب تجاوزوا مرحلة التهميش الكلي وكونوا مجموعات ضاغطة وأصبحوا أكثر وعيا وقدرة على حشد التأييد والتعامل مع وسائل الإعلام. لقد أثر هذا الوضع على إسرائيل ولم تعد حرة تماما في تصرفاتها ضد العرب والفلسطينيين، وأخذت تحسب حسابا للرأي العام العالمي بعد أن كان مجندا لصالحها.

نظرية الأمن الإسرائيلي وجدت تطبيقاتها السريعة والحاسمة في عالم غربي كان محسوما لصالحها ويمجد قدراتها العسكرية ومهارة جنودها. وكذلك كان الأمر بالنسبة لقياداتها الذين كانوا يرتسمون بصورة الأبطال والأفذاذ في الغرب. لم يعد الآن بمقدور الحكومات أو رؤسائها أن يتمختروا بقواهم العسكرية بذات الحرية التي خلت، وانعكس هذا بالتالي على الوضع الداخلي الذي يجد نفسه منشدا إلى الوراء باتجاه القيادات التاريخية ومجرورا إلى الحاضر حيث لم تعد الظروف مواتية تماما كما كانت في السابق.

الانحدار

في ظل هذه المتغيرات شهدت إسرائيل تدهورا في أخلاقيات الاستنفار ومواجهة التحدي وبدأ يأخذ منها الاسترخاء مأخذه. لم تشهد إسرائيل في السابق على سبيل المثال رئيس دولة متورطا بقضايا مالية أو رئيس وزراء متهما بسرقة بعض التحف والهدايا. الرشوة موجودة الآن في الإدارة الإسرائيلية وكذلك العطايا والهبات والاختلاسات. هناك فساد في مختلف المؤسسات وتهرب من دفع الضرائب وعمليات احتيال ونصب واسعة. لم تستشر هذه الظواهر بعد لكن حدتها تتزايد باضطراد.

أنماط سلوكية جديدة أخذت تجتاح تصرفات الناس في إسرائيل، وهي تتجه نحو الحرص على المصلحة الذاتية حتى لو كان على حساب المصلحة العامة. ومن الواضح أيضا أن ثقة إسرائيل بذاتها قد تزعزعت بعض الشيء وأصبحت تفكر أكثر من مرة قبل أن تتخذ خطوات ضد العرب. وربما تؤكد تصريحات قيادات إسرائيل حول القدرات التي يمتلكونها والطاقة العسكرية الهائلة التي تحت تصرفهم هذه الزعزعة.

قد يكون في إسرائيل من يرغب في العودة عشرين أو ثلاثين سنة إلى الوراء، لكن الظروف الموضوعية لم تعد تسمح على المستويين الداخلي والخارجي. هناك واقع جديد على الساحة الدولية يصعب أن يتساوق مع الأنماط الإسرائيلية القديمة، وهناك واقع داخلي يدفع باتجاه الإسترخاء والبحث عن الرخاء الذاتي. أي أن المرحلة هي مرحلة تجاذب وشد بين رغبات متناقضة وتطلعات متعاكسة ولن يكون من السهل لحكومة إسرائيلية أن تستقر، أو لرئيس وزراء أن يكون قائدا تاريخيا عندما يبدأ المنحنى بالانحدار.

التفسخ الحزبي

تقود حالات القلق السياسي والاجتماعي إلى التفسخ الطائفي أو العرقي وما شابه ذلك وتزداد حدة الشك في العلاقات الداخلية ويحل التعصب محل التسامح وتحمل الآخرين وتقدير ظروفهم وتفهم وجهات نظرهم. هذا واضح في الكثير من دول العالم الثالث التي تدمر فيها الشرذمات والتفسخات الكثير من المقدرات الهامة في إخراج الناس من أوضاع اقتصادية وبيئية بائسة. طوائف ترفع السلاح في وجه بعضها البعض وتقوم بأعمال تخريب متبادلة، ومجموعات أو جماعات مجتمعية متعددة تعزف عن التعاون مع بعضها البعض لأن أهل الشمال مثلا يظنون أن أهل الجنوب متخلفون أو لأن سكان الحارة الشرقية أرقى من سكان الحارة الغربية أو لأن القرويين يعملون في الفلاحة وسكان المدن يمتهنون التجارة التي تدر دخلا أفضا، وإلى غير ذلك من الترهات. في مثل هذه الأوضاع تكثر الأحزاب وتزداد صراعاتها التي لا تقوم على الإنجاز وإنما على الاتهامات والقذف والتشهير.

تعاني إسرائيل من قلق سياسي ومن حالة تفسخ اجتماعي تفرض نفسها على التركيبة الحزبية وبالتالي على الوضع السياسي العام. هناك أحزاب كثيرة لا مبرر لوجودها من الناحية الفكرية لكنها تعبر عن مصالح ضيقة لها علاقة بالطائفة والعرق. هناك يهود روس وشرقيون وغربيون ومتشددون وإصلاحيون وتوراتيون وغير ذلك. وبسبب التحوصل الاجتماعي والتباينات في الطروحات السياسية والدينية وفي الحظوظ المادية والوظيفية، وبسبب الخلفيات القائمة على التمييز والعنصرية لم يعد من السهل إقامة نظام سياسي تستقر فيه الحكومة. هناك استقرار في النظام لكن الحكومة ستبقى تعاني من حالة الترنح ما دامت الأسباب قائمة. لكنه من المتوقع، من زاوية الفلسفة السياسية، أن ينعكس عدم استقرار الحكومة على النظام السياسي فيصبح غير مستقر أيضا. بمعنى أنه من المؤكد ألا يتميز تقلب الحكومة الصهيونية مستقبلا بالهدوء والتقبل السلمي وإنما سيواكبه عنف.